تجسّد تجربة المعاناة والفداء التي تقاسيها الحداثة في ذاتها وحيلها، يخرج الشاعر من عصره المادي، ويحاول العودة إلى الفطرة، بعد أن فرضت عليه الحياة الأليمة من الخارج.
ويقول أدونيس في كتابة زمن الشعر: « كانت مهمة الشاعر العربي في النظرة التقليدية أن يلاحظ العالم فيستعيده ويصفه، أمّا مهمته في النظرة الحديثة، فهي أن يعيد النظر أصلاً في هذا العالم أن يبدّله، أن يخلق ويجدّد ». ①

المحاضرة السادسة

الحداثة الشعرية ـ 2 ـ

تمهيد: إذا كانت الحداثة كما رأينا سابقا، هي مغامرة في الكشف والمعرفة ودعي لشامل للحضور الإنساني وتغيير لنظام الأشياء فإنّ السؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح في هذا السياق هو كيف ينظر الشعر المعاصر إلى التراث؟

الشعر بين المعاصرة والتراث: إنّ دعي الحداثة الفاسفي والمعرفي ما كان ليتحقق لو مارست ـ الحداثة ـ القطيعة مع التراث، لأنّ هذا الأخير ما هو إلا انعكاس للأصالة والهوية والكينونة.

يقول أدونيس: « إنّ الشاعر المعاصر لا يكتب في فراغ، بل يكتب ووراءه الماضي، وأمامه المستقبل، فهو ضمن تراثه مرتبط به، لكنّ هذا الارتباط ليس محاكاة للأساليب والنماذج التقليدية، وليس تشبثا معها ولا بقاءً ضمن قواعدها ومناخها الثقافي ... لا يستطيع الشاعر أن يبني مفهوما شعريا جديدا إلا إذا عانى أولا في داخله انهيار المفهومات السابقة » ①

إذن علاقة الشاعر المعاصر بالتراث، هي علاقة تفهم وإدراك

① ـ أدونيس: زمن الشعر ص 46

واعي للمحن الإنساني.
فالشاعر المعاصر الحداثي لا يبدع شعرا وهو لا يؤمن بالماضي بوصفه إرثا معرفيا، يجب التأمل منه، لأن التراث مثقل بحمولة معرفية وفلسفية تثري رصيد الشاعر، وتساعده في تكريس فعل الوجود، لأن الشاعر الحداثي، هو ناقم وثائر يريد أن يحرك المستنقع العربي الآسن وأن يستنهض الهمم، إنه مسكون بقوى التغيير يهاجم الشعراء الماجورين المداحين المسترزقة، الذين يقفون ببابب السلطان يأكلون من خبزه ويشربون من نفطه، فالشاعر هو ضمير الأمة وذاكرتها، لا يكون شاهد زور على عصره وانهزام أمته بل هو الشاعر الذي يحترق بنار شعره، والشعر هو اللهب المقدس إنه التمرد والرفض والعصيان والثورة يقول عبد الوهاب البياتي:

« لا أكتب شعرا من ذاكرتي أو ذاكرة الموروث المحبط لكني في حرب عصابات الشعر على الأعراف المحشوة قشا والموت المجاني وراء المتراس دما أنزف مسكونا بقوى الثورة والكون المتغير أصنع ذاكرة لوجود الإنسان الغائب والحاضر »①

لقد وظف الشاعر المعاصر على سبيل المثال لا الحصر الأسطورة بوصفها تراثا فكريا، من أجل الإرتفاع بالقصيدة من تشخيصها الذاتي، إلى إنسانيتها الأشمل والأعم، وإلى اكسابها بعدا أعمق ومجالا أفسح وتأثيرا أرحب يقول محمود درويش: ②

هل نستطيع نسا سخ الإبداع من جاجامش المحروم من عشب الخلود
ومن أثينا بعد ذلك ؟ أين نحن الآن ألرومان أن يجدوا وجودي
في الرخام، وأن يعيدوا نقطة الدنيا إلى روما وأن يلدوا حدودي
من تفوق لسفلهم
لكن فينا من أثينا
ما يجعل الجد القديم نشيدنا

---

① - نجيب البعيني : موسوعة الشعراء العرب المعاصرين ص 480.
② - محمود درويش : أرى ما أريد ص 61

وأنشيدنا حجرٌ يجلّ الشّمس فينا
حجرٌ يشعّ غموضنا
أقصى الوضوح هو الغموض

لقد أصبحت هذه القطعة حبلى بالرموز الأسطورية والتاريخية والخاصة في نسق يتبعه تيار الوعي الذي يعتمد أسلوب النداء شكلا أساسيا لتقديم تلك الرموز وصهر عناصرها، ممّا يحقق تواجد أجزائها. إنّ استخدام الأسطورة كعنصر شعري ملتحم ببنية القصيدة ومجسّدا لكينونتها، وذلك بخلق موازاة "فنية" بين حادثة معاصرة تتفق في بعض أمشاجها مع الحادثة القديمة، حيث تضع هذه المعادلة تطابقا في ظلّ اللّحظة المعاصرة والزمن القديم الذي تمثله الأسطورة. والخلاصة أنّ الشاعر المعاصر، لا يستطيع الاستغناء عن التراث بوصفه إرثا إنسانيا مباحا للجميع، لأنّ هناك فرقا بين نعيش في التراث أو نعيش بالتراث.